

كلمات مرسله

للدكتور محمد يوسف موسى

نحن - العرب أو المسلمين عامة - نميش على هامش الحياة نفعل بما يكون من أحداثها ، دون أن تكون قوة في إيجاد هذه الأحداث . وبعبارة أخرى ، نحن مادة قابلة لما يريد الغير من ضور لا قوة تفعل وتفرض على الغير ما تريد صور في هذه الحياة من كل أو بعض نواحيها .



ونجد مصداق هذا الذي نقوله فيما نحن عليه من نظم : في التعليم ، والبرلمان ، والقانون ، والسياسة وفي سيرة ممثلينا في البلاد العربية . ونظن الأمر تكفي فيه الإشارة والتعليم ، ولا يحتاج لشيء من الإيضاح . فتلك حقيقة لا ريب فيها وهي نكبة على الأمة . إذ ليس معنى هذا إلا فقداننا الثقة بنا كأمة أو جنس ، وفقداننا الشهور بأن لنا شخصية مستقلة ، بها تتميز عن غيرنا ونستمددها من ديننا والغير من تقاليدنا وحضارتنا ، وبها يجب أن نميز في غير كبرياء فارغ .

ليس من ضير على أية أمة أن تأخذ عن غيرها بعض ما تراه خيراً من نظمها وتقاليدها ، وتضمه إلى ما تحرص عليه من التقاليد الخاصة بها . ولكن من الشر ، كل الشر ، أن تذهب الأمة لتلتبس لها نظاما في التعليم أو القانون أو الحكم من أمم مختلفة ، فيجىء هذا النظام مزقاً متهاقاً ليس له وحدة حقيقية تضم أطرافه ، وليس له هدف موحد يسير إليه ، وليس له من فضل إلا أنه مأخوذ عن أم ترى أنها تقدمتنا في الحضارة ؛ وهو مع هذا كله - لا يتفق وديننا ، ولا يتفق مع ما هو خير

من عاداتنا وتقاليدنا .

لقد آن الوقت الذي يجب أن نضع من جديد في الميزان تقاليدنا وحضارتنا كي نرى منها ما به نصلح في هذا العصر ، فنبتق عليه ونمتصم به ونعمره ؛ وما كان منها خيراً لآمن فبر زماننا ، فلا نأسى على أطراحه واتخاذ بديل منه من هنا أو هناك .

وآن الوقت الذي يجب فيه أن نتساءل في جد : هل الإسلام هو الدين الحق الذي رضيه الله لنا كما يقول القرآن ؟ وهل نحن كما يذكّر القرآن حقاً خير أمة أخرجت للناس ؟ فإذا وصلنا إلى اليقين بأن هذا وذاك حق ، وذلك مالاريب فيه ، يجب أخيراً أن نتساءل عن السبب الذي من أجله لا يستخلفنا الله في الأرض كما استخلف الذين من قبلنا ولا يمكن لنا ديننا الذي ارتضاه لنا ، ولا يبدل لنا من بعد خوفنا أمناً كما جاء في سورة النور من القرآن .

هذه آية كريمة تتضمن وعداً كريماً صادفنا من الله ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ وقد صدق الله وعده في فجر الإسلام وبعده في أزمان مختلفة ، لأجدادنا الذين آمنوا به حقاً بقلوبهم لا بالسنهم وحدها ، إيماناً واجهوا من أجله الموت راضين سمداء ، فلماذا لا يتحقق لنا كل هذا الذي وعد الله به مرة أخرى في هذا العصر إن حصلنا ما يجب أن يكون منا من أسباب ؟

إن ارتباط السبب بالسبب أمر ضروري لا شك فيه . وقد أخطأ الغزالي خطأ بليغاً ، لا زلنا نعانى حتى اليوم من أثره السيئ ، على العقل والفلسفة والصالح العام للمسلمين ، وذلك جين حاول باسم الدين هدم القول بارتباط المسببات بأسبابها ارتباطاً ضرورياً لا عادياً .

قول أخطأ الغزالي خطأ بليغاً ، إذ كان من صميمه أن وقر في نفوس عامة المسلمين - بعد أن قرر ما قرر وهو حجة الإسلام - أن المرء قد ينجح في حياته وهولم يتخذ للنجاح أسبابه الضرورية ، سواء أكان زارعاً أو صائماً أو تاجراً أو رجل سياسة ودولة !

وكان من هذا أيضاً أن أخذ كثير ، حتى من الشافعيين ، يتساءلون عن العلة التي من أجلها لم يحق الله للمسلمين هذه الأيام مظاهر القوة والسيادة ، ما به يؤكد أننا حقاً خير أمة أخرجت للناس وأن الإسلام خير الأديان . من هذا يتساءلون ، وينسبون أن أى مسبب لا بد أن يكون له سبب ، وأن خرق ذلك لن يكون إلا

معجزة . وقد مضى زمن المعجزات ، يتساءلون عن هذا ، وينسبون
أنا لسنا مؤمنين ولا مسلمين حقا .

نعم ! لنقل هذا صراحة ، فلنسنا من الإيمان بالقدر الذي
به يحقق الله ما وعد لعباده المؤمنين . وأدنى هذا القدر أن تؤمن
بالله وحده ، وألا ترجوا أو تخاف غيره ، وأن تتذكر أينما كنّا
من العالم أننا مسلمون ، وأن نعمل دائما عمل المؤمنين المسلمين .
هذا هو جامع السب الذي به نكون أهلا لنصرة الله لنا ،
وذلك ما ليس متحققا فينا بكل أسف . ولنكتف في هذا المقام
بالقليل من الأمثلة ، أو الواقعات التي شهدناها بنفسنا وشهدناها مع
كثير من الإخوان المصريين المسلمين .

١ - دعيت أكثر من مرة لحفلات استقبال أقاتها هذه
أو تلك من الدور الرسمية التي تمثل البلاد الإسلامية في باريس ؛
فكان يجري في هذه الحفلات مالا يذكرنا قط أننا في
دار تمثل دولة من دول الإسلام . وحسبي أن أذكر أن من
ضروريات هذه الحفلات أن تسيل الخمر كأنها الماء ، وألا يتعفف
عن شرها إلا القليل جداً ممن عصم الله ، وأن يكون ذلك كله على
مشهد من الأجانب الذين يعجبون أن يحدث هذا من ممثلي
الامة الإسلامية .

ثم ذلك لا يحدث في الأيام العادية فقط ، بل حدث أحيانا
في رمضان ، شهر الصوم ، وأثناء النهار ! بينما دعيت مرة في
رمضان أيضاً لحفلة استقبال أقاتها وزارة التربية الوطنية بباريس ،
فكان مما عني به القوم أن بدء الحفلة كان بعد غروب الشمس
بقليل ! تلك مفارقة ، وأي مفارقة !

٢ - حاولت إدارة رسمية تشرف هناك على طلاب البعثات
عقد صلات بين الطلاب وأساتذتهم الأجانب ، فلم تر إلا أن تقيم
حفلة راقصة فيها كانت الخمر أصنافاً والواناً ، وذلك في وسط من
الفوضى عجيب ، حتى اضطر بعض هؤلاء الأساتذة إلى الانصراف
في عجب بالغ والم شديد .

وهذان مثالان ، ولو شئنا لأتينا بأخرى ، ولكن المقام
لا يسمح وحيز الكتابة محدود . على أي ، مع هذا ، أضيف أيضا

هذه الكلمة التي نرى منها أننا نبتعد كل يوم عن الإسلام .

يكون من بعض من جمل الله إليهم الأمر في الأمة الإسلامية
في مصر أو غيرها من بلاد الشرق الإسلامي ، الحدث الجلل
من الأحداث ، الحدث الذي هو ظلم ساخر ، ظلم يتناقض صراحة
وأمر الله ورسوله ، ومع هذا لا نجد كلمة اعتراض من واحد من
الأمة . أي والله ، لا نجد أحدا يعترض ، حتى ممن يجب عليهم -
بحكم مناصبهم الرسمية ومكانتهم من الأمة - الذود عن الدين والشرعية
وحمايتها من العدوان .

ثم ، مع هذا كله ، تعجب من أننا في ذلة وهوان ، بينما نغربي
في عزة واستعلاء ! ومتناسين قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم » ! ومتناسين أيضا قوله في موضع آخر
من القرآن : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولنجعلهم
دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من يبد خوفهم أمنا يعبدونني
لا يشركون بي شيئا » . ففي هاتين الآيتين الكريمتين بين الله
الأسباب التي يكون عنها النصر والعزة ، وبين أن بين هذه الأسباب
ومسبباتها رابطة لا انفصام لها ، تلك سنة الله في خلقه .

هذا ، وهناك ناحية أخرى أحب أن أتناولها في هذه الكلمات .
أقد لمست ظلال الأعوام التي قضيتها في فرنسا ، وفي الفترات التي
القصيرة التي عشتها في ألمانيا وإنجلترا وأسبانيا ، أن القوم هناك بعد
الحرب يجتازون دورا خطيرا من ناحية العقيدة والدين .

إن كثيرا من الشباب في أوروبا ، وبخاصة شباب الجامعة ،
صاروا يترفون بمجزم عن فهم الديانة المسيحية وما فيها من أسرار
تعجز العقل . وأن كثيرا من هؤلاء ، بلغ بهم التفكير الجاد في
هذه المشكلة ؛ أن صاروا يتلصسون لأنفسهم عقيدة أخرى يفهمها
العقل ويعلمون لها القلب ؛ عقيدة تنفق ر هذا العصر الذي نعيش
فيه ، العصر الذي لا سيبل فيه للإيمان بما يعجز العقل عن إدراكه .

رأيهم يطلبون دنيا فيه للقلب هوى ، وللعقل رضى ، وفيه
من الروحية ومن المادية ؛ دين لا يرفض الدنيا ، بل يأخذ منها
ويعمل في الوقت نفسه للآخرة . وإن منهم من فكر حقا في الإسلام